

في الأدب المقارن

الإنسان

في الأدبين العربي والانجليزي

للأستاذ غفرى أبو السعود

إذا ما استقر الإنسان في موطن آمن، وارتقت عقلية، لم يعد يكتفى بتوفير حاجاته الجسدية وافتقاء قوارع الطبيعة، بل بدأ يفكر في نفسه ومنشئه وغايته؛ لم يعد يكتفى بقبول الحياة على علانها ومدارة غوائلها، بل راح يتسامل عن ماهيتها وغايتها وما بعدها، وأجاب عن تساؤله ذلك بما تتيح له عقلية البدائية من تفسيرات فطرية، بعضها صادق وأكثرها وهمي؛ ثم ما يزال كلما ترقى في مدارج الفكر يعاوده الشك من حين إلى حين في تلك التفسيرات، ويثور على عقائده المتوارثة، ويتناولها بالتعديل والتعديل، فيكون من ذلك الدين والفلسفة

ويشارك الأدب الدين والفلسفة في التعبير عن تأمل الإنسان في نفسه، وتساؤله عن نشأته ومصيره، فيحفل الأدب شيئاً فشيئاً بآثار تفكير الإنسان في الحياة والموت، وافتخاره بقوة وسيادته، وجزعه من ضعفه وقصور حيلته، واعتداده بمبتدعائه في مجال العلم والفن والصناعة، وارتياحه من تساؤل آثاره تلك جميعاً لإزاء قوى الطبيعة وأبعاد الكون؛ وتصطبغ تأملاته تلك في عالم الأدب بصبغة البشر والتفاوت حيناً، وبصبغة التشاؤم والقنوط حيناً، حسب ما يسود المجتمع من عوامل الحيوية والثقة بالنفس والاقبال على أسباب المتعة والحبور، أو دواعي الانخزال وسقوط الهمة وقنوط العزيمة، وحسب ما يحتاج الأديب الفرد من بشر ملازم أو طارىء، وتشاؤم مصاحب أو عارض.

فتأمل الإنسان في نفسه، وتساؤله عن مكانه في الكون، واهتمامه الدائب بسبر قواه وامتحان قدرته واستكناه غاياته ومراميه، كل هاتيك من أظهر ميزات المجتمع المتحضر والأدب الحى. وقد كان ذلك الاهتمام المليح بالإنسان: قواه وطباعه ومواطن ضعفه، ومفاخره ومعاييه ومصائره ومطامحه، من أبرز

ظواهر المحاضرة الاغريقية وخصائص الأدب الاغريقي والفنون الاغريقية، ففيها تنويه بالجمال الانساني وترجم بالبطولة الانسانية، وفيها بجانب ذلك عرض لنقائص الانسان ومغامزه، وفيها إشادة بما تمهد له الحياة من أسباب المجد والابتداع والتمتع والسرور، وتصوير لما تفرضه عليه من هوان وصغر وقهر وآلام، وما تبسط له من فجاج الحرية وما تكبله به من مشعبات القيود؛ وليست مواضع الدراما اليونانية المتعددة في صميمها إلا موضوعاً واحداً: هو اصطدام مطامع الانسان بصرامة الأقدار

ولحفول الأدب الاغريقي على ذلك النحو بدراسة الانسان، سميت الآداب الاغريقية أو الكلاسيكية عامة منذ عهد النهضة الاوربية. بالانسانيات، فإن الاطلاع عليها لم يكن كشفاً للعالم القديم فقط، بل كان كشفاً للنفس الانسانية ذاتها، تلك النفس التي كانت قد أهملت في العصور الوسطى أشد الاهمال، وازدريت شر الازدراء، بتأثير الكنيسة التي ذهبت في تضليل العقول مذهبا بعيدا، فزعمت الانسان شريراً خاطئاً بالطبع، وعلت الانسان أن فيه نزعة من الشيطان، لا يذهب مسها عنهم إلا العضا في الصغر، ودوام التدم والاستغفار في الكبر. وهكذا عكست الكنيسة بجهالتها غاية الدين الذي لم يأت إلا لتوطيد ثقة الانسان بنفسه وتمكين اعتقاده بحاضره ومستقبله، فلا غرو خمد الأدب في تلك العصور، إذ لا أدب ولا حياة إلا حيث للإنسان ثقة بالانسان وقد ورت الأدب الانجليزي فيما ورت عن الأدب الاغريقي تلك النزعة الانسانية، وحفل كما حفل أدب اليونان بتمجيد الانسان من جهة، والاسى لتلاعب الأقدار به من جهة أخرى؛ فواضيع روايات شكسبير الكبرى كهملت وعطيل وما كبت هي مواضع الدراما اليونانية: فهي تدور حول أبطال أو عظماء نالوا من المجد وشرف المحدث فضائل الشجاعة والقوة والعقل شأوا عظيماً، ولكن كل مزايهم تلك تذهب هدرًا من جراء مغامر في شخصياتهم تسلسل منها أصابع القدر إلى سعادتهم فتتفصها، وإلى مجدهم تنتله؛ ورواياته بجانب ذلك تعج بشقى الدراسات للطبائع الانسانية، التي تثير الروعة والإكبار تارة، والشفقة والاسى مرة، والاحتقار والاشمئزاز حيناً، والسخر والضحك طوراً. وإذا انتقلنا إلى العصر الحديث في الأدب الانجليزي ألفينا نفس ذلك المراك المستمر بين النفس الانسانية الجادة في تحقيق مطالبها ومطامعها، وإثبات شأنها وخطرها، وبين القدر الصارم

حتى في شعره النسبي ، الذي يتسم لذلك بمسحة الحزن والكآبة .
ولشيرلى مقطوعة رائعة في الموت سارت بعض ألياتها مسير
الأمثال ، وهي تطابق في شتى المواضيع معاني رباعيات الخيام .
ومن أحسن أشعار التأمل في الموت في الانجليزية قول كيتس ،
وقد كان لضعف بنيتة ما يزال متمثلاً شيخ الموت : « حينما يخامرني
الخوف من أن أقضى قبل أن أجنى كل ثمار عقلي الوافرة ، وقبل
أن تحويها الكتب المكدسة كما تحوى اليبادر المحصول الناضج ؛
و حينما أشاهد على وجه الليل المرصع بالنجوم رموزاً من الغمام
لرواية تجري في علو ، وأذكر أني ربما لا أعيش حتى أرسم ظلاً
لها يد الإلهام السحرية ؛ وحينما أشعر يا جميلتي الوشكة المضى
أنى لن أراك بعد ، ولن أنعم بتلك القوة الساحرة : قوة الحب
اللاسمى ، عند ذلك أقف وحيداً على شاطئ الدنيا الرحيبة ، وأفكر
حتى يصير الحب والمجد هباء ،

وتمثلت رهبة الطبيعة لأدباء الانجليزية في البحر وهياج أواذيه
واصطخاب عواصفه ، وأطراد ثورته وبعد غوره . ومن روائع
آثار الشعراء في هذا الصدد أبيات تينسون التي نظمها وقد قصد
البحر مفكراً مهموماً ، ينبغي العزاء عن فقد صديق له جسيم ، ومنها
قوله : « تكسر أيها البحر على صخورك الباردة الكالحة ، وطوبى
لابن الصائد إذ يتصايح هو وأخته لاعبين ، وتمضي الجوارى
المشتات إلى مراتها بسفح التل . ولكن من لى أنا بمصاحفة تلك
اليد التي غابت ، وذلك الصوت الذي سكت ، واستعار شلى ربح
البحر وشدة أسرّه وصرامة صروفه ، للتعبير عن صرامة الزمان
وبطشه بالإنسان . قال يخاطب الزمان : « أيها البحر الذي لا يُسبر
غوره ، والذي أمواجه السنون ، والذي قد غدت أواذيه أجاباً
من ملح دموع الإنسان ، والذي يطوى في مده وجزره أطراف
الإنسانية ، ويبشّم من فرائسه وإن يكن ما يزال يعوى طلباً
لسواها فيلفظ بقاياها على شطوطه غير الكريمة ولا الوثيرة ،
واسترعت تفكير الأدباء أحوال المجتمعات التي رخصها
الإنسان لنفسه مقاماً وما يداخلها من نقائص لا يخلو من بعضها
مجتمع أو جيل ، وما في بعض أنظمتها من تقيد للحريات وهضم
الحقوق بعض الأفراد أو الطبقات ، فنددوا بتلك المساوية ونادى
بعضهم باصلاح تلك المفاسد التي تهبط بالإنسان عن رتبته التي
هو جدير بها في الكون ، وتعرض سيره إلى ما ينشده من كمال ؛
فكان منهم رادة حركات النهوض والاصلاح ؛ بل نادى بعضهم

القوانين السادر في جبروته . لم يزد بعد تقدم العلم وتذليل قوى
الطبيعة إلا تجسماً واستفحالاً . وقد نقله هاردى من عالم الرواية
التمثيلية التي تدور حول الأبطال والملوك ، إلى القصة المقروءة التي
تدرس المجتمع العادي ، وتتناول أوساط الناس ودهمهم ، وليست
« تس ، الفقيرة إلا نظيرة أوفيليا ، المنعمة ، ولا « يهود المغمور ،
في طموحه إلى القوة إلا قريع ، مكبت ، المشهور في تطاوله إلى
العرش : مطامح إنسانية ، وآمال في المتعة والسعادة ، وأقدار ماضية
تعرضها وتبطش وهي عمياء بطش جبارين

وقد كان الموت ولن يزال عدو الإنسان اللدود ، وبلاءه
الأكبر ، والفرز الأعظم الذي استغلق على فهمه ، ووقف له
بالمرصاد كأنما يسخر من كل ما يبني وما يجمع ، ويتهم بكل
ما يأتي وما يدع ، ويقنعه في ذروة نجاحه ومجده وسعادته بمبعث
سفيه وإدراكه ؛ ومن ثم امتلأت الآداب بذكر الموت وصولته
وإزرائه بالحياة والأحياء ، وإتيانه على الجبارة ، وتسويته بين
العلية والسوقة ، وبين العالم والجاهل ، وتمزيقه شمل الألاف ،
وتعفيتها لآثار السرور والفوز بوصل الأحبة ، وبعثه بحور
العيون وبياض الأجياد والنحور . وقد قفن الخيام في رباعياته
في صوغ هذه المعاني وتحليلتها بالصور الفاتنة المنتزعة من الطبيعة
ومن الجمال الإنساني ، ومن مجالس الصفو والشراب

وبجانب الموت تمثلت الرهبة لعيني الإنسان في مظاهر الطبيعة
الرائعة ، وقواها المصطرة ، وفجائها المترامية ، ومخلوقات
المقتلة في سبيل الغلب والبقاء ، وصممها عن آلامه وأشجانه ،
وغفلتها عن أفراحه وأتراحه ، ومضيها على عاداتها حسنت به
الحال أو ساءت ، وخلودها على رغم فناءه ، وطبها جيلاً من الناس
بعد جيل ؛ فامتلا الأدب بذكر ذلك كله . ومن جميل أمثله
مقطوعة هوجو ، الطبيعة والإنسان ، التي يقابل فيها بين شباب
الطبيعة وشيخوخته ، ونضارتها وجفاف عوده ، وبقائها ووشك
ذهابه ، ويتنبأ بقيام جنازته بين معالم أعيادها ، وبمضيه غير ماسوف
عليه منها ، ولا محسوس فقده .

وقد كان شكسبير معنياً بالموت موكلاً بالتفكير فيما بعده ،
يُطلق بذلك أبطاله كهملت ، الذي يتأمل في الموت في خلوته ،
ويؤم المقابر حيث يرى الحفارين يعشون بالجمام وحيث يشهد
دفن حبيبته في ريعانها . ولا يمل شكسبير ذكر الموت والبلى ،

تروى من نفوسهم مالا ترويه الحقيقة الواقعة ، يصور آلامها تصويراً يخفف وقع تلك الآلام عن نفوسهم ، ويحكى مفاتها ونعمها التي فاتتهم حكاية تشفى صدورهم . فتمثل الأديب للحياة في فنه يشعره كأنما قد أحاط بتلك الحياة وتمكن من أعينها ، ويكسبه ثقة بنفسه وإيمانا بقدرته على الابتداع والابتيان بمجديد من عنده .

- فتيسون حين فقد صديقه الحميم سالف الذكر توفر على إنشاء قصيدة طويلة في ذكره ، ولكنها لم تقتصر على ذكره بل امتدت إلى شتى نواحي الحياة وشملت نظره العامة إليها ؛ وشكسبير حين مرت به أزمته النفسية الكبرى بإخفاق آماله في الحب والصداقة ، نفّس عن صدره بآسيه الكبرى ، وفيها لا نرى الإنسان ألعوبة عاجزة في يد الأقدار ، بل نرى من آثار بطولته ما يملأنا روعة ويُنقِ آمالنا نور الأمل ؛ وورد . زورث حين تبددت أحلامه في المجتمع الانساني الفاضل الذي خال الثورة الفرنسية منجليه عنه ، مرت به غيمة قنوط عابسة لم يقشعها عنه إلا تعزّيه بمحاسن الطبيعة وقضائه الوقت متفينا ظلّالها مصوراً - آثارها في شعره . وفي عبادة الجمال الطبيعي والانسان كان كيتس يجد مفزع روحه بما يتكفنه من بأساء الحياة وما يفيض عيشه من فتكات الداء

- ومن أبدع الأشعار التي تعرض جانبي الصورة ناصعهما وحالكهما ، وتجسم ضعف الانسان وفناءه ، وتمجد قوته وعبقريته ، مقطوعة شلي المسماة « أوزيماندياس المصري » ، وفيها يقول : « قابلت مسافراً من أرض قديمة قال : تقوم في الصحراء ساقان من الحجر ضخمتان عديمتا الجذع ، وقد ارتقى بجانبهما وجه مهشم يكاد يغور في الرمال ، تنطق تقطيعته وشفته المعوجة كبرياء وعظمة هادئة ، بأن المثال قد أجاد قراءة تلك الصفات التي ماتزال حية مطبوعة على ذلك الخطام الجامد ، وقد فئت اليد التي صورّتها والقلب الذي غذاها ، وقد لاحت على القاعدة هذه الكلمات : اسمي أوزيماندياس ، ملك الملوك . انظروا إلى آثارى أيها الجبابرة وأقروا يائسين ، وليس بجانب ذلك شيء باق ، قد أحاطت بذلك الخطام الهائل المهدم رمال موحشة منبسطة جرداء تمتد إلى مالا نهاية ، ؛ فهنا وصف شائق أخذ لعظمة الملك وبراعة الفنان ، وتصوير رائع لسطوة الموت وبطشة الفناء

بفض المجتمع والعودة إلى الطبيعة . وبمثل تلك الكتابات الاجتماعية تحفل كتابات فلتير وروسو . وقد كانت هذه النزعة ضئيلة المظهر في الآداب القديمة ؛ أما في الآداب الحديثة فهي تتعاظم وتشتد جيلاً بجيل . فالتقد الاجتماعي والحض على الإصلاح غرض حديث من أغراض الأدب يضارع غرضه القديم من التعبير عن الجمال والافصاح عن الشعور الفردى فالتفكير في شأن الإنسان ماضيه وحاضره ومستقبله من مميزات الإنسان المتحضر المثقف ، وهو لا يكف عن هذا التفكير طوال حياته ؛ ولا تزال أشباح الماضي والمستقبل والحياة والموت ماثلة أمامه ، يكون لنفسه في شأنها فلسفة تختلف عمقاً واتساعاً وإقتناعاً ، وتختلف في مدى قربها من اليقين والجزم ، أو قيامها على الشك والرفض . على أن هذا التفكير الانساني يفرض نفسه فرضاً شديداً على كل أديب أو كل مثقف أو كل إنسان ، في فترة خاصة من فترات حياته ، بل أزمة من أزमत وجدانه ، يشتد فيها تفكيره في نفسه وبني جنسه ، ويحفزه إلى التساؤل والثورة على الحياة الإنسانية حادث نفساني يؤثر فيه أثراً عميقاً : من خيبة أمل أو إخفاق حب أو موت عزيز ، فتتسم آثار الأديب في تلك الفترة بالتمرد والتشاؤم والكتابة ؛ وقد يحاول إصلاح العالم دفعة واحدة ويدعو الناس إلى حياة جديدة تصورها له أحلامه ، ثم ما يلبث أن تخلف الحقائق المتحجرة ظنونه وتنبط هياجه وتروض جراحه ، فيعدل حياته بما يلائم ظروف الحياة الإنسانية البطيئة التغير الوئيدة الخطى ، فتعود آثاره الأدبية مشرقة بالبشر متغنية بمباهج الحياة بدل الامعان في التفطيش عن معانيها ولسريان الحيوية في دماء الشعب الانجليزي وغلبة التفاؤل على أمزجة أبنائه ، كان أديبوه إذا راعتهم نقائص الحياة الإنسانية وشروها ، وأحزتهم ضعف الانسان وشقاؤه ، لم يلبثوا أن يتحولوا عن ذلك الجانب الأسود من الصورة إلى جانبها الأبيض ، ويطلبوا العزاء بما في الحياة من جمال عما فيها من قبح ، فيشيدون بمقدرة الانسان على الجلال وبراعته في الابتكار ، وبطولته وماضيه الخافل بالعظام ، ويترنمون بمفاتيح الطبيعة وما يصيب الانسان عندها من رخاء بال وراحة نفس ، ويطلبون السلى قبل كل شيء بممارسة فنهم الذي يصور تلك الحياة ويحكى حكاية

الإنسان والأحياء عامة ، وتفكيراً في ماضى الإنسان ومستقبله ، وتبصرأ في أحوال مجتمعاته ودياناته ، وله في كل ذلك من مستنير الأنكار المصوبة في جزل الألفاظ والأساليب ما ينزله أرفع مكانة بين الشعراء المفكرين ، على ما يشوب تفكيره في أكثر مواضعه من مسحة التشاؤم القائم المغرق الذي هو وليد عصره المضطرب ، وحياته الكئيبة ، وبنيتة السقيمة ، وأعصابه المرهفة . وفيما عدا المعري نرى أدباء العربية عامة أقل عناء بشؤون الإنسان وشغلا بالحياة وغايتها من أدباء الإنجليزية ؛ وهم أكثر منهم قبولاً للحياة على علاقتها . ورغبة في اغتنام متعاتها والتغاضي عن سوائها ، وأقل تمرداً ولجاجاً في الأزمات النفسية . والأديب العربي أكثر تحدثاً عن نفسه وعاداته وآدابه ولباناته منه عن الإنسان عامة ؛ وهذه النزعة السميحة الراضية ترجع إلى عوامل أهمها طيب المناخ الذي يبعث البشر والثقة ، والإيمان الديني الذي بعثه الإسلام في نفوس أبنائه وبثه في مجتمعاتهم ، والإسلام أكثر تغلغلاً في حياة معتقيه وتسرباً في أرواحهم وتجسماً في مظاهر مجتمعاتهم من غيره من الأديان . هذا إلى أن الحكم المطلق لم يكن يسمح للأدباء بنقد المجتمع والنظم نقداً جريئاً ، وإنما كان يروضهم على الاندماج في ظروف الحياة المحيطة بهم ، والتعود على اجتناء خيرها واتقاء شرها ، كما قال الشاعر :

وإن امرأ أمسى وأصبح سالماً من الناس إلا ما جنى لسعيد
فلم يكن أدباء العربية يطيلون الوقوف بمهامه الشكوك
ومضايق الأزمات النفسية ، بل سرعان ما كانوا يشيخون عما يطوف بهم من خيالاتها علماً بأن من أظال الفكر في الحياة وغايتها ، والإنسان ومصيره ، أقامه الفكر بين العجز والنصب ، كما قال المتنبي ، وحين كانت تطيف بهم تلك الحالات النفسية العابسة ، ويثير شجنهم وجزعهم ما يلاحظون في حياة الإنسان ومجتمعه من نقص وشر ، لم يكونوا يتأسون كما يتأسى شعراء الإنجليزية بمحاسن الطبيعة ، فقلبا أعاروا محاسنها التفاتاً ، كما أنهم قلبا أكثر ثراً لفجائتها وأهوالها ، ولو كانوا يتعززون بذلك البطولة الإنسانية ، فما يكاد يكون لها في آدابهم أثر ؛ أو بتاريخ الأمم العظيمة ، فما كانوا يذكرون من أمرها إلا غرور مشييدها وتقويض الزمان لأركانها ، ولا بالتأمل في مخلفات فنون تلك الأمم ، فما كانت توحى إليهم إلا بضعف الإنسان وبطلان مساعيها .

وفي الأدب العربي نرى تزايد هذا الاهتمام بالإنسان نشأته وأحواله ومصيره ، بتزايد حظ العرب من الحضارة والثقافة : ففي الأدب الجاهلي وفي صدر الإسلام لا نعتز إلا بالآيات المتفرقة يتأمل فيها الشاعر في ضعف الإنسان وقصر حياته ، وتلاحق همومه ، واتصال آماله برغم ذلك ، وشدة إقباله على الحياة وتغاضيه عما وراءها . وفيما عدا تلك النظرات الحاطفة والمراعاة العارضة ، لا يكرث الشعراء أنفسهم كثيراً بالتساؤل فيما كان ماسوف يكون ، بل لكل منهم شأن يعنيه من حاضره ، فتتوزل عاكف على هواه مترنم بليلاه ، ومفتخر يشيد بمجد نفسه ومكان قبيلته ، ومداح يجتهد في استدراار صلات الأمراء ، وهجاء ممن في إثمخان غريمه . وما أثر عن متقدمي الشعراء في التأمل في حال الإنسان قول القائل :

منع البقاء تقلب الشمس وطلوعها من حيث لا تسمى

وقول الآخر :

ألا تسألان المرء ما ذا يحاول ؟

أنجب فيُقتضى ؟ أم ضلال وباطل ؟

ويتزايد التفكير في خلق الإنسان وغايته كلما انتشر العلم والفلسفة : فترى في شعر بشار وأبي نواس وأبي تمام من آثار ذلك فوق ما نجد في شعر الأخطل والشماخ وجمل ، حتى يبلغ ذلك التفكير مداه بنضج العلوم والفلسفة في القرنين الثالث والرابع ، ويبدو ذلك واضحاً في آثار شعراء العربية الكبار : ابن الرومي والمتني والشريف والمعري : لكل من هؤلاء فلسفة إنسانية مثورة في أنحاء شعره ، ونظرة إلى الحياة تلائم طبعه ومذهبه : فابن الرومي يرى الحياة فرصة من الجمال الطبيعي والإنساني يجب أن تغتنم ، ومتعة للحس والروح يجب أن تباكر . والمعري يرى حياة الناس شقاء وشرأ متصلاً . والشريف يرى مثله الأعلى في الفضيلة والمعال . والمتني يرى الناس سواما يحرقهم القتل ويحق لمثله أن يسود فيهم ويعتلى ، فلسان حاله قوله : ومن عرف الأيام معرفتي بها وبالناس رؤى ربحه غير راحم كما أن جماع فلسفة المعري قوله :

فأف لعصرهم : نهار وحندس وجنسى رجال منهم ونساء
والحق أن المعري كان أشمل هؤلاء جميعاً نظرة ، وأنفذ شعراء العربية جميعاً فكرة ، وأشد هم شغلا بالحياة ، وعناء بأمر

ضوء مبدع على مأساة شهيرة

٢- هل قتل الحاكم بأمر الله أم اختفى؟

فقرينة الاختفاء كما يشرها الرعاية المبرورة

للأستاذ محمد عبد الله عنان

وقد رأينا فيما تقدم أن الدعاة الملاحدة، أعني حمزة بن علي وصحبه، ألفوا في اختفاء الحاكم فرصة لأذكار الدعوة وتغذيتها، واتخذوا من هذه الاختفاء وظروفه الغامضة، مستقى جديداً للزعم والارجاف؛ فزعموا أن الحاكم لم يقتل ولم يمت، ولكنه اختفى أو ارتفع إلى السماء، وسيعود عند ما تحل الساعة فيملا الأرض عدلاً، وأضحى هذا الزعم أصلاً مقررأ من أصول مذهبه. وقد انتهت إلينا في هذا الزعم — أي زعم الغيبة والرجعة، وثيقة هامة بقلم كبير الدعاة حمزة بن علي ذاته، وفيها يشرح لنا ظروف هذا الاختفاء وبواعثه على ضوء دعوته وأصول مذهبه، وإليك ما جاء في تلك الوثيقة الهامة التي تقدم رغم غرابة شروحه ومزاعمها إلى المؤرخ مادة للتأمل:

يقدم إلينا حمزة رسالته بهذا العنوان: «نسخة السجل الذي وجد معلقاً على المشاهد في غيبة مولانا الامام الحاكم، وهي التي يفتح بها رسائله في متن الدعوة وأصولها حسبما أشرنا فيما تقدم ويؤرخ الداعي هذه الرسالة بشهر ذي القعدة سنة ٤١١ هـ، أعني عقب اختفاء الحاكم أو بعده بأيام قلائل، ويفتحها بدعوة الناس إلى المبادرة «بالنوبة إلى الله تعالى وإلى وليه وحجته على العالمين وخليفته في أرضه وأمينه على خلقه أمير المؤمنين، وأنه قد سبق إليكم، أعني إلى الناس، من الوعد والوعظ والوعيد من ولي أسركم وامام عصركم، وخلف أنبيائكم، وحجة بارئكم وخليفته، الشاهد عليكم بمويعاتكم، وجميع ما اقترعتم فيه من الأعداء والانداء، ما فيه بلاغ لمن سمع وأطاع وامتدى وجاهد نفسه عن الهوى وآثر الآخرة عن الدنيا، وأنتم في وادي الجهالة تسبحون، وفي تيه الضلال تخوضون وتلعبون، حتى تلاقوا يومكم الذي كنتم به توعدون،

وإن أمير المؤمنين قد أسبغ على الناس نعمه ولم يفر عليهم

وقد التفت المتغنى إلى شرق الأمباطورية الإسلامية المترامية فقال: أين الأكاسرة الجبابرة الأولى كثر الكونز فابقين ولا بقوا؟ من كل من ضاق الفضاء بجيشه حتى ثوى لخواه لحد ضيق والتفت إلى غريبها فقال:

أين الذي الهرمان من بنيانه؟ ما قومه؟ ما يومه؟ ما المصراع؟ تتخلف الآثار عن أصحابها حيناً ويدركها الفناء فتنبع إنما كان أدباء العربية إذا جزعوا لضعف الانسان وقصر مدته وشروور مجتمعه، يجدون مفزعهم من الحزن والقنوط في «الفضيلة الاجتماعية»: في الأخلاق القويمة التي تكسب الإنسان حسن الاحدوثة الموروث حبها عن العرب الأقدمين، وتنجيه من شروور المجتمع الذي لا يده له بإصلاحه، والذي لا تنال شرووره عادة إلا من يستهدف لها بسوء فعله، وتكسبه رضى ربه وتضمن له عقبى الدار. ومن ثم زخر الأدب العربي بروائع الحكم ونيل القدح بمكارم الأخلاق، وهذا باب من أشرف أبواب الأدب العربي وبه يمتاز على غيره، ومن محاسن ما فيه من ذلك قول لياس بن القائف:

إذا زرت أرضاً بعد طول اجتبابها فقدت صديق والبلاد كما هيا
فأكرم أخاك الدهر مادمتها معاً كفى بالميات فرقة وتنايها
وقول الشريف:

لغير العلا منى القلي والتجنب
ولولا العلا ما كنت في العيش أرغب
غرائب آداب حبانى. بحفظها

زمانى، وصرف الدهر نعم المؤدب
فالعرب كانوا منذ جاهليتهم أمة اجتماعية ذات ميل غريب إلى الاجتماع، وفضيلة اجتماعية أصيلة، واستعداد متمكن للتضامن والتعاون. وأن يكونوا أمة مصلحة، يأنسون بالاجتماع ويتفاخرون بحسن الجوار وسيادة العشيرة وخدمتها معاً، ويستغلون بمتعات تلك الحياة الاجتماعية عن طول الندب لنقائص الحياة وشوائبها، وطول التشكك والتحير في منشأ الكون ومنتهاه، وميلهم الطبيعي ذاك واضح الأثر في شعر شعرائهم. وفضيلتهم الاجتماعية تلك هي مرجع ازدهار العمران في كل بلد وطوئه، حالما وطوئه، على حين نشر الأغريق الخراب في شرق البحر الأبيض حين هبطوه، واستغرقوا قروناً طويلة في الاستقرار وتشرب الحضارة؟

فخرى أبو العمد